

" التواصل الصوفي بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ما بين القرن 18-20م

- الطريقة التيجانية نموذجاً -

د/بن حيدة يوسف أستاذ محاضر - ب -

جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي

benhidasf1@gmail.com

تاريخ القبول: 2019-02-15 تاريخ النشر: 2019/05/25

تاريخ الارسال: 2017-08-19

الملخص:

اكتست الحركة الصوفية أهمية بالغة بما مثلته من خصوصية في الفكر الإسلامي عموماً، وما عرفته من توجهات عملية متميزة، وانتشار خارج الحدود الجغرافية عبر روافد متعددة مثلتها قوافل رجال التصوف ومؤلفاتهم وبما حملته من تراث فكري وطرح جديد .

إذ يسجل التاريخ للكثير من الطرق الصوفية بروزها كعامل موحد بين الشعوب ومؤثر في الحياة العامة بما قامت به من نشاط شمل جوانب عديدة، بعد أن غابت شروط التواصل الحضاري وتقلبت العلاقات والروابط بين الكيانات السياسية لشيوع الانحطاط وارتفاع سدود العزلة، فظهرت الفرق الصوفية كثقافة مشتركة تسمح على الأقل بالإحساس التفاعلي ووحدة الانتماء .

وهل يمكننا الحديث عن الطرق الصوفية إلا كثقافة أو جسور ربطت بين شعوب وثقافات متعددة، وما الطريقة التيجانية إلا نموذج من النماذج التي ساهمت في صياغة معالم الحضارة في السودان الغربي بما قامت به من نشاط صوفي وحراك سياسي أسس لظهور شخصيات حملت معها تراثاً فكرياً ومشروعاً حضارياً مرتبطاً بحراك صوفي، ولعل التساؤل المطروح في هذا الجانب: ما هي خصوصيات الحضور الصوفي التيجاني في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء؟ وما مدى تأثيره على المنطقة ودمج المجتمع ضمن المجال الإسلامي؟ وما أهم مظاهر التواصل الصوفي بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء؟

الكلمات المفتاحية:

الصوفية، التواصل الصوفي، الطريقة التيجانية، الفرق والطرق الصوفية، إفريقيا جنوب الصحراء.

1-نشأتها وتكوينها :

تنسب التيجانية إلى مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني ⁽¹⁾ المولود بعين ماضي حيث نشأ بها وتعلم فحفظ القرآن الكريم وبعض العلوم المدرسة في تلك الفترة، ثم اتجه في رحلة علمية قاصدا مدينة فاس سنة 1171هـ/1757م وحضر دروس العلم بها وأخذ على شيوخها كأبي محمد الطيب الوزاني وأحمد الصقلي، وعاد بعدها إلى عين ماضي ومنها إلى " الأبيض سيدي الشيخ " ثم اتجه إلى حاضرة تلمسان سنة 1181هـ/1767م التي كانت تنافس مدينة فاس علميا وثقافيا، حيث اضطلع بمهمة التدريس بها لسنوات ⁽²⁾.

واقترءا برجال العلم والتصوف قرر القيام برحلة مشرقية سنة 1186هـ/1772م لأداء مناسك الحج، التقى فيها بالعديد من المشايخ، ومنهم الشيخ عبد الرحمان الأزهري (ت 1208هـ/1793م) ⁽³⁾ الذي أخذ عنه تعاليم وأوراد الطريقة الرحمانية، ثم انتقل إلى تونس وبها شغل مدرسا سنة كاملة، ومنها إلى مصر حيث اتصل بالشيخ محمود الكردي مقدم الطريقة الخلوتية، وواصل رحلته إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج سنة 1187هـ/1773م وأخذ على عدد من المشايخ الأوراد والأذكار والعلوم، واتسعت بها شهرته، ثم رجع إلى مصر حيث كلفه الشيخ محمد الكردي بإنشاء طريقة صوفية بعد تجميع المريدين، وعينه مقدما للطريقة الخلوتية ⁽⁴⁾، وتنقل بعدها بين تونس ثم عين ماضي فتلمسان، ثم فاس مرورا بوحدة سنة 1191هـ/1777م اتصل خلالها بالشيخ علي حرازم بن العربي أحد مريديه الأوفياء ⁽⁵⁾.

ويبدو أن الترحال صاحب الشيخ التيجاني فبعد فترة قضاها بفاس رجع إلى تلمسان التي استقر بها حتى سنة 1782، ويذكر أبو القاسم الزباني " أنّ الشيخ أحمد التيجاني اشتغل في تزييف العملة، وأنّ الباي عثمان عاقبه ثم نفاه عن تلمسان، وطلب منه عدم الإقامة في أي منطقة تابعة له وأن لا يستوطن في أيالته ببلد من البلدان فسار ينتقل من محل لآخر ⁽⁶⁾.

واتجه بعدها الشيخ أحمد التيجاني إلى واحة بوسمغون ⁽⁷⁾ وفيها جاءه الفتح الأكبر من سيّد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام وطلب منه القيام بواجب الوعظ والإرشاد، وبلغ خبره باي وهران فكتب لأهل قرية بوسمغون وهددهم وتوعدهم إن لم يقوموا بطرده، وهاجر إلى فاس في 18 سبتمبر 1789 ولما وصل إليها منحه مولاي سليمان دارا لمرأة لممارسة نشاطه الصوفي واستمر بها إلى أن وافته المنية سنة 1231هـ/1815م ⁽⁸⁾.

وقد ترك الشيخ التيجاني إرثا صوفيا تقوم عليه التيجانية في تكوينها شمل الجانب الغيبي المتعلق بالتأثير على المريدين بقدره خارقة، والتصورات الغيبية التي تتمثل في الكرامة وإبرهاصات التأسيس، حيث عدّها بعض الأدبيات

الصوفية من شروط الشيخ المؤسس، ولم تخلو كتب المناقب المهمة بالتيجانية بتناول الكرامات التي ارتبطت بالشيخ التيجاني كولي ، فحاولت أن تضيء عليه هالة من القدسية، ونسجت حول سلوكاته ونشاطه أعمالاً خارقة للعادة، وهذا من أجل إبراز دوره في عملية الإقناع والإستقطاب إتما مشاهدة أو رواية⁽⁹⁾ ، والختمية التي تعتبر الشيخ أحمد التيجاني خاتم الشيوخ والأولياء، والطريقة التيجانية خاتمة الطرق ، ويشير صاحب بغية المستفيد إلى الختم الأكبر وهو ختم الولاية المحمدية فهو واحد أيضا لا يكون منه إلا واحد في عصر النبي عليه الصلاة والسلام⁽¹⁰⁾ .

وتقوم أيضا على الجانب السلوكي من خلال الإلتزام بالواجبات الدينية كالأوراد وقراءتها في الأوقات المحددة، وهي كثيرة بعدد المقامات والأحوال التي عرفتها التيجانية وتتكون أذكراها من الإستغفار مئة مرة، والصلاة على النبي بصيغة الفاتحة، وذكر التهليل أو الذكر الفردي "الله-الله" ألف و خمسمائة مرة أو ست مئة مرة مساء يوم الجمعة فقط⁽¹¹⁾ .

2 - أهم الزوايا التيجانية :

ترتبط الطريقة التيجانية كغيرها من الطرق الصوفية بمراكز روحية متمثلة في زوايا أنشأتها لتجميع المريدين والأتباع ونشر مبادئها ومن أبرزها :

- زاوية عين ماضي: تقع في بلدة عين ماضي في جنوب سلسلة جبال العمور على بعد 72 كلم غرب مدينة الأغواط في الشمال الغربي⁽¹²⁾ ، وهي مركز وموطن للطريقة التيجانية، بدأت في نشاطها الصوفي بعد عودة الشيخ أحمد التيجاني من قرية أبي سمغون (1196هـ، 1782م)⁽¹³⁾ ، وقامت بدور كبير في نشر الطريقة عن طريق تعيين الدعاة والمقاديم في مختلف الجهات وبناء الزوايا والمحافظة على مكانتها الروحية.

- زاوية تماسين: زاوية تيجانية تقع في جهة تعرف بتملاحت، أسسها الحاج علي بن عيسى الينبوعي (1214هـ، 1798م)⁽¹⁴⁾ ، وتعاقب على رئاستها عدة شيوخ ، كما عرفت استقرارا كبيرا في خلافة محمد العيد بن الحاج علي وهو ثالث خليفة للطريقة التيجانية (1852- 1876)⁽¹⁵⁾ .

وللزاوية دور كبير في نشر تعاليم الطريقة في الجنوب الشرقي من الجزائر والجنوب التونسي وأصبحت مدينة تماسين أهلة بالسكان وبالساتين والأشجار المثمرة، ومركزا هاما من مراكز الطريقة التيجانية بعد زاوية عين ماضي .

-زاوية تلمسان : ترتبط في نشأتها بالشيخ أبي عبد الله الطاهر أحد أصحاب الشيخ أحمد التيجاني البارزين ، وتتميز عن غيرها من الزوايا بمواجهتها للمستعمر ، ولم تتردد في التعبير عن مساندتها للأمير عبد القادر، وكان مريدو

الزاوية وأتباعها ينهضون بأداء الوظيفة الممثلة في "جوهرة الكمال" وإقامة هذه الصلاة إحدى عشر مرة بدل اثنا عشر مرة مختلفة عن باقي الزوايا التيجانية في العدد (16).

وهناك عدة زوايا فرعية في مختلف جهات الوطن نذكر منها على سبيل المثال زاوية الطيبات بولاية الوادي، وزاويتان في أوقروت وأولاد راشد بولاية أدرار، وزاوية أوقروت تتربع على مساحة شاسعة قدرها اثنا عشر هكتار خصص منها عشرة هكتارات للزراعة، ومحصولها لتغطية نفقات الزاوية وأجور المعلمين (17).

زاوية فاس : كان لشيخ الطريقة التيجانية ورحلاته باتجاه المغرب الأقصى بعد رحلة الشيخ التيجاني نحو فاس، حيث أسس بها زاوية سنة 1213 هـ / 1799م ومنحه السلطان مولاي سليمان دار المرآة بحي القرويين لممارسة نشاطه الصوفي (18)، واكتسبت مكانة هامة بعد وفاة الشيخ التيجاني سنة (1231هـ/1815م)، وأصبحت مزارا للأتباع والمريدين من مختلف المناطق وبخاصة من السودان الغربي.

3- انتشار التيجانية في السودان الغربي وفروعها:

عرفت الطريقة التيجانية امتدادا جغرافيا شمل منطقة الصحراء والسودان الغربي ووادي النيل والسنغال وإفريقيا الغربية، وقد ساهمت الدعوة والتجارة في انتشار الطريقة واكتساب ثروة طائلة لتدعيم الزوايا التيجانية خاصة زاوية تيماسين وعين ماضي (19).

ويرجع انتشار الطريقة التيجانية (20) في السودان الغربي إلى جهود الحاج عمر الفوتي التكروري (1795 – 1864) الذي تلقى تعاليم الطريقة وأورادها على يدي الشيخ عبد الكريم بن أحمد النقييل الفوتو جالوني (21)، وبناشطه الصوفي عرفت التيجانية انتشارا واسعا وتفرعت عنها زوايا وطرق تابعة لها من أبرزها :

-الحافظية : تنسب إلى الشيخ محمد الحافظ العمري المتوفي سنة 1245 هـ / 1829م (22) في أدرار مطلع القرن التاسع عشر، وكانت بدايتها بمدينة شنقيط ثم ما لبثت أن عمّت مختلف المناطق الصحراوية شاملة منطقة تجكجة قبل أن يصل أهلها إلى بلاد الترازو، ولم تنته سنة 1245 هـ / 1829م حتى كان الجزء الأكبر من قبيلة "اداو علي" يتبع الطريقة التيجانية، وقامت بدور كبير في تدعيم الأخوة بين القبائل الصحراوية، والجمع بين الظاهر والباطن مستفيدة من الفيضية وما تعلق بها من إشراقات روحية (23).

-**العمرية** : تنسب إلى الشيخ عمر الفوتي (1795- 1864)⁽²⁴⁾ بحوض السنغال في السودان الغربي ، وترتبط سندا بالشيخ مولود فال تلميذ الشيخ محمد الحافظ والشيخ عبد الكريم الناقل ، تعدد نشاطها إضافة إلى اهتمامها بالأذكار والأوراد ، قامت بحركة جهادية ضد الممالك الوثنية لنشر الإسلام في ربوعها ما بين (1850- 1854) ، وقامت بالمرصاد للحملات التبشيرية التي رعاها الإستعمار الفرنسي ، وبعد وفاة الحاج عمر سنة 1865م تراجعت العمرية وانحصرت في تجمعات أسرية في عديد من القرى⁽²⁵⁾ .

اللايينية : طريقة فرعية عن التيجانية تنسب لمؤسسها "إمام لاي تاو" ، ظهرت سنة 1880 في قرية "يوف" قريبا من دكار ، ترتبط ارتباطا صوفيا تيجانيا في مجال الذكر والأوراد⁽²⁶⁾ غير أنها لم تستقطب عددا معتبرا من الأتباع ، مما جعل نشاطها قصير مقارنة بالطرق الفرعية الأخرى .

-**المريديّة** : تنسب الطريقة إلى مؤسسها أحمد حبيب الله بامبا⁽²⁷⁾ وهو سنغالي من قبيلة الولوف كان في بداية أمره قادريا ثم تحول إلى التيجانية بعدما وجد في كنفها تساهلا في قضية حرية البلاد ، وكانت نشأتها سنة 1889 ، فقامت على أساس ديني بمواجهة الرواسب القديمة وتطهير الإسلام من البدع ، وقامت بمواجهة الإستعمار الفرنسي ، وأنشأ مؤسسها رباطا كمرکز روعي لطريقته يجمع مريديه وأسس مسجد طوبا الذي شرع ببنائه سنة 1924 ، كما عرفت طريقته نشاطا اقتصاديا تمثل في حث المريدين على العمل الزراعي تحت شعار: " من يعمل يأكل " ، ونتج عن ذلك تطور اقتصادي بالسنغال في إنتاج الفول السوداني⁽²⁸⁾ ، وبعد وفاة بامبا سنة 1927 أصبح أتباعه يزورون قبره في مدينة **طوبا**⁽²⁹⁾ سنويا ، وتنفق خلال الزيارة مبالغ مالية على ضريحه ، وحسب الإحصائيات فقد زار الضريح مائة ألف من الأتباع أنفقوا خلالها نحو 30 مليون فرنك خلال سنة 1948⁽³⁰⁾ .

-**الحموية** : ظهرت هذه الطائفة في **نيورو** بمنطقة حوض السينغال على يد الشيخ حماد الله التشيتي⁽³¹⁾ وارتبط ظهورها بأزمة التيجانية في غرب إفريقيا ، ويرجع الفضل في إيجادها وإحيائها إلى زاوية تلمسان التيجانية ، فقد كلف الشيخ أبو عبد الله سيدي الطاهر مريده الشيخ محمد الأخضر بالتوجه إلى الصحراء ، والبحث عن من يستطيع حمل الأسرار التيجانية ويتولى حمايتها وإعادة أجمادها التاريخية ، فعين الشيخ "حماد الله" خليفة التيجانية بغرب إفريقيا سنة 1318هـ / 1900م وأطلعه على حلقاتها وأسرارها ، فقامت هذه الطائفة بإقناع التيجانيين الإثنا عشرية بالالتزام بقواعد الطريقة فصار أتباعه يعرفون بالإحدى عشرية ، واستطاع أن يعطي التيجانية العمرية شكلا صوفيا ناميا، يصل بالإنسان إلى حالات من النشوة الروحية، كما قامت على المقاومة ورفض الوجود الإستعماري حتى وفاة شيخها سنة 1363هـ / 1943م⁽³²⁾ .

4- العلاقات التيجانية بين بلاد المغرب والسودان الغربي:

عرفت التيجانية امتدادا جغرافيا ورصيدا بشريا بعد انضمام العديد من الأتباع إليها وتدعيم نشاطها، مما كان له الأثر في الإنتشار الطرقي عبر المجال، وجمع حراكها بين العمل العسكري والدعوي، وتدعمت أكثر نتيجة الارتباط الروحي الذي يجمع أحباب الطريقة، فشكلت المنظومة الصوفية بمكوناتها حلقة وصل بين بلاد المغرب والسودان الغربي في جوانب أبرزها:

4-1- السند التيجاني: يعتبر التيجانيون الشيخ أحمد التيجاني خاتم الشيوخ والأولياء، والتيجانية خاتمة الطرق الصوفية في بلاد الله، وللطريقة التيجانية سلسلة واحدة ترجع إلى المؤسس، ولذا ليس من حق الأتباع إعطاء العهد لأي واحد بعد ذلك⁽³³⁾، فقد تتلمذ الشيخ التيجاني في رحلته الصوفية على العديد من علماء عصره⁽³⁴⁾، وصحب كثيرا من شيوخ التصوف مثل الشيخ محمد بن عبد الله التزاني الذي لقنه القادرية والناصرية، والشيخ الأزهري الذي لقنه الطريقة الرحمانية، والشيخ الحبيب السلحماسي الصديقي الذي لقنه أوراد الصديقية، ومع ذلك لا تتناول المصادر ارتباط السند التيجاني بمبادئ هذه الطرق، حيث تشير المصادر التيجانية إلى أن التيجاني ترك كل ما أخذه من شيوخها، وأخذ الورد المحمدي مباشرة من سيد الوجود عليه الصلاة والسلام يقظة ومشافهة في رحلته إلى بوسغون: "فتح الله عليه فتحا كاملا تاما واضح البرهان" ⁽³⁵⁾.

ولعل من خصوصية الإرتباط الروحي بين التيجانية وفروعها في السودان الغربي وبلاد المغرب ما يؤكد على التواصل الروحي هو رجوع السلاسل الصوفية إلى مؤسس الطريقة أحمد التيجاني، فالطريقة العمرية تنطلق في سندها التيجاني من شيخها الحاج عمر مرورا بالشيخ مولود فال ثم محمد الحافظ عن عبد الكريم الناقل، ومحمد الغالي المغربي الذي لقيه في مكة سنة 1244هـ/1828م، والعمرية عن طريق الشيخ محمد الغالي فتحت المجال أمام تعيين المقدمين خلفاء الطريقة⁽³⁶⁾.

كما لا نستثني الدور الذي قام شيخ زاوية تلمسان أبو عبد الله محمد سيدي الطاهر في الحفاظ على امتداد التيجانية في غرب إفريقيا، حيث قام بتعيين مريده الشيخ محمد الأخضر وأمره بالتوجه إلى الصحراء للبحث عن من يستطيع حمل الأسرار التيجانية بها فقام أثناء زيارته بتعيين بعض المقدمين من "قايدي" و "ولاتة" و "غرغل"، مثل "فودي أبوبكر" و "فودي عبد الله" و "فودي شيخو" و "فودي محمد يوسف" و "محمد عبد الرحمان" و "مامادي ولد بوبوي" و "عبد الله ولد لمين"، ونجحت مهمة مبعوث زاوية تلمسان في الحفاظ

على امتداد السند الصوفي والإرتباط الروحي التيجاني بين السودان الغربي والجزائر بتعيين حما الله شيخا للزاوية الحموية التيجانية⁽³⁷⁾.

وبهذا انطلقت من جديد لأداء رسالتها التربوية والإشعاعية داخل الممالك الزنحية متقلدة السيادة الروحية في صورة أكثر حيوية ومحافظة على الإرتباط التيجاني ببعده الزمني والجغرافي والاتصال الصوفي .

4-2- الزوايا التيجانية: شكلت الزوايا التيجانية مركزا صوفيا لاستقطاب الأتباع من مختلف المناطق، ونخص بالذكر إفريقيا جنوب الصحراء ، فقد شكلت الزاوية التيجانية بعين ماضي بمكانتها التأسيسية مركزا روحيا لأتباع الطريقة ، ومزارا تستقطب منه العديد من سالكي الطريق ، وحافظت على مكانتها منذ انطلاقتها وتوالى على قيادتها أبناء الشيخ أحمد التيجاني وأحفاده⁽³⁸⁾.

والأمر كذلك بالنسبة لزاوية **تماسين** التي استطاعت أن تفرض نفوذها رغم الإضطرابات التي مرت بها ، ففي فترة الشيخ أحمد العروسي بن محمد الصغير استطاعت الزاوية أن تتغلب على الخلافات وتفرض سلطتها الروحية على أتباع التيجانية في مختلف الأقطار الإسلامية، وامتد تأثيرها إلى الصحراء وبلدان إفريقيا⁽³⁹⁾.

أما زاوية تلمسان فقد كانت صلاتها الروحية بالسودان الغربي متينة ، وتمثل دعمها للتيجانية بما ساهمت به من دور فعال في استرجاع مكانتها بالمنطقة بعد وفاة الشيخ محمد الحافظ والحاج عمر ، فكلفت أحد مريديها للقيام بمهمة البحث عن خليفة وزعيم روحي للطريقة فنجحت في هذه المهمة بعد تعيينها لزعيم لطريقة الحموية حما الله وإشرافه على الزاوية⁽⁴⁰⁾.

كما شكلت زاوية فاس باعتبارها تضم ضريح الشيخ التيجاني مزارا مقدسا عند الأتباع التيجانيين بالسودان الغربي وخاصة السينغاليين والماليين والنيجيريين ومحطة رئيسية يلتقي فيها المریدون والأتباع .

وقد أدى الإرتباط الروحي بين الحموية وزاوية تلمسان ، إلى تحفظ الإستعمار منها فشدد مراقبته عليها ، وهذا ما عبّر عنه رجال الإقامة الفرنسية ومنهم الضابط الفرنسي André الذي أدان الطريقة بقوله " تربط الشيخ حماه الله علاقة قوية مع سوكوتو ، وحادجة وكلهم يرتبطون بعلاقة متينة مع المهديوية وحركة المصريين الشباب ، وفي جانب آخر أكد Némos سنة 1343هـ/1924م، إلى أن الطريقة الحموية استندت إلى الحجج البسيطة كبعض القصائد الهجائية المنسوبة إليه في التعريض بفرنسا⁽⁴¹⁾.

ورغم تعرض الشيخ حمى الله للنفي إلا أن ذلك لم يثنه عن مواصلة نشاطه الثوري ضد الإستعمار ، فقد استأنف الجهاد ضد فرنسا ورخص لأتباعه صلاة القصر ، واستمر في تحقيق هدفه من أجل تخلص البلاد من

الإستعمار، وكان رد الفعل الإستعماري بالحكم بالسجن على الشيخ الشريف وأتباعه سنة 1941، إلا أن توفي سنة 1942⁽⁴²⁾.

ورغم المحاولات الإستعمارية في محاولة طمس الحموية بعد وفاة زعيمها إلا أنها حافظت على استمراريتها وبشكل سري، وتضاعف معها عدد الأتباع وأصبحت مدينة "انبرو" مركز إشعاع صوفي حموي تيجاني وحاضرة تستقطب أحباب الطريقة.

4-3- الأذكار والأوراد التيجانية : تمثل الأوراد والأذكار أساسا من مكونات الطريقة وركنا من أركانها، حيث يعتبر خاصية تميز طريقة عن أخرى، وتسعى هذه الأوراد في مجموعها إلى تعميق الوعي الديني عند المريدين في تحصيلهم من الأخطار التي تواجههم، وتساهم في شحذ همهم وتقوية عزائمهم، كما تمثل نقطة تواصل بين أتباع الطريقة.

وقد أكدّت الطريقة التيجانية عن طريق مؤسسها أحمد التيجاني على ضرورة الإلتزام بأداء الأوراد في أوقاتها المحددة، والتي صنّفت حولها العديد من الأعمال والتي ذكرنا صيغها وأنواعها والعدد المخصص لقراءتها، وكان مريدو الطريقة في مختلف المناطق ينهضون بهذه الأذكار ويلتزمون بها عن طريق إشراف مقدميها وشيوخها مما يبرز الصلة الروحية التي تؤكد دور الذكر في هذه العلاقة.

ومن الأوراد التي وردت في أصول التيجانية وكان يقوم بتلاوتها الأتباع صلاة "جوهرة الكمال"⁽⁴³⁾ التي كانت زاوية تلمسان تؤكد على ضرورة قراءتها إحدى عشر مرة مستندين في ذلك إلى كتاب "جواهر المعاني" لعلي حرازم والذي يعتبر المنطلق الأساسي للتيجانية، واستطاع الشيخ الأضر أحد مقدمي الزاوية أثناء رحلته إلى السودان الغربي إقناع أتباع التيجانية بتصحيح بعض صيغ الذكر والخاصة بجوهرة الكمال فقد وجدهم يذكرونها اثني عشر مرة بدلا من إحدى عشر مرة⁽⁴⁴⁾، وحافظت الحموية على هذا النهج في الذكر مرتبطة بذلك بشيوخ زاوية تلمسان مما جعل الصلة القائمة على أساس الإرتباط الروحي مساهمة في التدعيم الصوفي والتواصل بين الزاويتين.

وقد كانت قراءة الأذكار التيجانية بالسودان الغربي لا تختلف في تلاوتها عن بلاد المغرب، فكانت تتم بشكل جماعي يتحلق فيها الأتباع حول ثوب أبيض يزعمون فيها على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس عليه بصحبة أحمد التيجاني أثناء الذكر، وتتلى الأذكار بصوت عال وإيقاع نظم ومنسق، وهذا ما جعل الحضرات تتميز بجاذبية للأتباع⁽⁴⁵⁾.

ولعل سر انتشار التيجانية في المنطقة يرجع إلى طبيعة أذكراها خاصة وأن الكثير من الشباب وجدوا فيها مجالا مناسباً لإشباع الرغبات الروحية التي لا سبيل لإشباعها لدى العامة إلا بطقوس تحمل معها تصرفات مشيرة كالرقص والتصفيق .

نستنتج أن الطرق الصوفية ساهمت كعامل أساسي في رسم مظاهر العلاقات الإفريقية وخاصة بين بلاد المغرب والسودان الغربي، وازدهار الصلوات الروحية التي مثلتها الطريقة التيجانية كنموذج من الطرق الصوفية الأكثر انتشاراً وتأثيراً بالمنطقة وتواصلها بمناطق عديدة وبخاصة بلاد السودان الغربي، وتوظيفها للعامل الديني من خلال القيام بمد قنوات الحوار والتواصل الصوفي وصيانة نسيج العلاقات الحضارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء بداية من القرن الخامس عشر وتوسعها أكثر في القرن الثامن عشر والقرن العشرين، إذ وجد هذا الأسلوب الديني قبولاً من طرف الأفارقة، وساعد على تغلغل طقوس الزوايا المغاربية وتعاليمها الصوفية في الجزء الجنوبي والغربي لإفريقيا بشكل خاص، مما جعلها تلعب دور تاريخي في مواجهة التحديات وتقوم بدور كبير تزعمه شيوخها ومرابطوها عن طريق تعليم الطلبة مبادئ الدين من قرآن وأحاديث وأذكار وأوراد تتلى جماعة، إضافة إلى التآطير والتنظيم المحكم الذي جعل الطريقة تعرف ازدهاراً كبيراً في إفريقيا الغربية وتساهم في مواجهة المحتل كما هو حال العمرية والمريديّة، وتتدعم على أساسها العلاقات الإفريقية المغاربية .

هوامش المقال :

- (1) - تناولت كتب المناقب التيجانية حياة التيجاني وربطتها بالعديد من الإرهاصات ذات البعد الكرامي ، فعددت مناقبه الأسرية ، فتناولت نسب والدته وما أحاط به من إعداد لتولي مهمة نشر الطريقة الصوفية التيجانية ، للتفاصيل راجع عنه: محمد العربي بن محمد السائح الشرقي العمري التيجاني، بغية المستفيد لشرح منية المرید، ضبط و تصحيح عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 138 وما بعدها؛ بن شهرة المهدي، الطرق الصوفية في الجزائر السنية، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2004، ص ص 28، 37. وأيضا: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2004، ص ص 50، 55.
- (2) - فيلاي مختار الطاهر ، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني ، دار الفن الكرافيكي للطباعة والنشر ، ط1، باتنة ، ص 46.
- (3) - يعرف بالجرجري تلقى تعليمه في زاوية الصديق أعراب في آيت إيراثن ، والجزائر العاصمة ، وفي سنة (1152هـ/1739م) توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وفي عودته استقر بجامع الأزهر فترة طويلة مترددا على عدد من الشيوخ أمثال الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الذي لقنه مبادئ الطريقة الخلوئية ، وعلى إثر عودته إلى الجزائر في عام (1183هـ/1769م) قام بنشر تعاليم ومبادئ الطريقة الرحمانية الخلوئية أنظر عنه : مصطفى بن عبد الرحمان بن أحمد بن حمودة بن مامش ، (باش تارزي القسنطيني) ، رسالة المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، مخطوط بخزانة المخطوطات، المكتبة الموهوبية بجاية، الجزائر، ص ص 9-10؛ محمد زاهد الكوثري، البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوئية، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت، 2004، ص 22؛ ابو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1979، ص 245؛ أيضا : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4، (1954/1830)، طبعة خاصة ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص ص 506-507.
- (4) - الطريقة الخلوئية: طريقة فارسية في سندها عرفت انتشارا في مصر، وترجع إلى الشيخ عمر الخلوقي (ت 800هـ، 1397م) ومؤسسها الحقيقي يحيى الشرواني (ت 868هـ) الكوثري ، المصدر السابق ، ص 23، التفتازاني، المرجع السابق ، ص 245.
- (5) - تولى مشيخة زاوية فاس وهو مؤلف كتاب جواهر المعاني ، للتفاصيل انظر عنه : العمري ، المصدر السابق ، ص 164.
- (6) - أبو القاسم الزباني ، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ، تحقيق عبد الكريم الفيلاي ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الرباط ، 1991، ص 460.
- (7) - يقال أيضا بالصاد : قصر معروف في الصحراء الشرقية به مدفن القطب الكبير سيدي أبي سمغون ، وبينها وبين الشلالة كان المقام للتفاصيل أنظر: العمري ، المصدر السابق ، ص 166.
- (8) - عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 53.
- (9) - للإطلاع أكثر على الروايات المتعلقة بالشيخ التيجاني راجع : العمري ، المصدر السابق ، ص 173 وما بعدها.
- (10) - نفسه، ص 185.
- (11) - نفسه، ص ص 266، 269.
- (12) - سعيدة زيزاح، ظاهرة الطرق الصوفية بالجزائر " الطريقة التيجانية نموذجاً"، الملتقى الدولي الحادي عشر للتصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، جامعة أدرار ، 2008/2009، ج2، ص 374.
- (13) - محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، (1956، 1800)، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالحمدية ، الدار البيضاء ، المغرب، 2002، ص ص 159، 160 .
- (14) - المرجع نفسه، ص 160. توفي الحاج بن عيسى 1260 هـ / 1844 م أنظر : سعد الله ، المرجع السابق، ج4، ص 219.
- (15) - زيزاح، المرجع السابق، ص ص 385، 387.
- (16) cheikh hamahoullah, Les confreres religieuses musulmanes, Alioune Traoré, paris, 1983 , p 37 , 81.

- (17)- زيزاح، المرجع السابق، ص 390.
- (18) - الظريف ، المرجع السابق ،ص 163.
- (19)- عبد العزيز، بنعبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، ج2، التصوف المغربي خواص ومميزات، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2001، ص 218.
- (20)- هناك من يرجع وصول التيجانية الى غرب افريقيا بواسطة الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي المتوفي سنة 1830 م ، الذي كان له اتصال مباشر بالشيخ المؤسس ، وقام بنشر الطريقة بين قبائل شنقيط وامتد نفوذها إلى السنغال ، انظر : عبد القادر محمد سيلا ، المسلمون في السنيغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ط1، قطر ، 1985. ص 136.
- (21) - عبد الرزاق ابراهيم، المرجع السابق، ص55.
- (22)- محمد الحافظ بن مختار بن حبيب لقي الشيخ التيجاني في عودته من رحلة الحج فتعلم منه وترى لديه وعاد الى بلاد شنقيط سنة 1220هـ/ 1805 م ، فنشر الطريقة التيجانية والتي أصبحت تعرف بالحافظية نسبة إليه أنظر : الخليل النحوي ، بلاد شنقيط المنارة والرباط ، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني ، من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، مكتبة المنتدى الإسلامي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، 1987، ص 123.
- (23) - الظريف ، المرجع السابق ،ص 169.
- (24)- محمد سيلا ، المرجع السابق ،ص 136.
- (25)- نعيم قداح ، المرجع السابق ،ص 122.
- (26) - سيلا ، المرجع السابق ،ص 138.
- (27) - عاش أحمد بامبا من 1851 - 1927) ، وتعرض لمضايقات استعمارية ، وفرضت عليه الإقامة الجبرية الى أن وافته المنية سنة 1827 ، سيلا ، المرجع السابق ،ص 138.
- (28)- نفسه ، ص 139.
- (29) - تقع مدينة طوبى في السنغال ، حيث تبعد بحوالي 150 كلم من داكار ، وتمثل العاصمة الروحية للمريديّة ، وتستقبل زهاء المليون نسمة سنويا بمناسبة الاحتفال بليلة 17 صفر ذكرى نفي الشيخ " بامبا الى الغابون ، وتودوم الاحتفالات ثلاثة أيام، وتدور حول المسجد وضريح مؤسس المريديّة الذي تم بناؤه حسب الروايات بدعم من السلطات الإستعمارية : انظر : سيلا ، المرجع السابق ،ص 139، نعيم قداح ، المرجع السابق ،ص 126.
- (30) - نفسه ،ص 125 - 126.
- (31)- مؤسس الطريقة حمى الله بن محمد بن عمر المولود في مدينة نورو عام 1886 والواقعة شمال مالي ، على الحدود الموريتانية ، وتسمى هذه الطريقة الحماوية أو الحمالية - نسبة الى التركيب حمى الله - والأصح ان التسمية الحموية بكسر الحاء ، كما تعرف أيضا بالشريفية من كلمة شريف لان والد حمى الله من شرفاء مدينة تيشيت في موريتانيا . . E, Paul Martytude L' islam , Smaithsonian Libraries ,E Leroux, Paris, 1920, p113 et Les Trubus du Sudan,
- (32) - الظريف ، المرجع السابق ،ص 176.
- (33) - عبد الرزاق ابراهيم ، المرجع السابق ،ص 55.
- (34)- مثل الشيخ الطيب بن محمد اليملاحي العلمي ، وأحمد الصقلي ، ومحمد بن الحسن الواحلي ، ومحمد الكردي وأبي العباس أحمد بن عبد الله الهندي ، ومحمد بن عبد الكريم السمان ، وغير هم للتفاصيل راجع : الظريف ، المرجع السابق ،ص 152.
- (35) - العمري ، المصدر السابق ،ص 258.
- (36) - طاهر دكري ، الطريقة الحموية في مرآة الطريقة الأحمدية التيجانية ، الرأس الأخضر ، دكار السنغال ، 1986، ص 38.
- (37) - الظريف ، المرجع السابق، ص 174.
- (38)- توالى على مشيخة الزاوية الشيخ محمد الكبير التيجاني (ت 1242هـ/1826م) ، وسيدي محمد الصغير (ت 1260 هـ/1844م) ، ومحمد بن محمد الصغير التيجاني (1292هـ/1876م ، والشيخ البشير بن محمد الصغير (1315هـ/1897م) . : Hamaoulah , op cit , p422.

- (39) - Ibid ,p 426.
- (40) - الظريف ، المرجع السابق ،ص 162.
- (41) - نفسه ،ص 175.
- (42) - قداح ، المرجع السابق ،ص 128.
- (43) - يشترط في قراءتها الطهارة المائية ، وتنوب عن عشرين من صلاة الفاتح لما أغلق صيغتها " اللهم صل وسلم على الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ،ونور الأكوان المتكونة ..." للاطلاع أكثر على صيغتها راجع : أحزاب وأوراد أحمد التيجاني ، العمري ،المصدر السابق ،ص 354.
- (44) - نفسه ،ص 174.
- (45) - سيلا ، المرجع السابق ،ص 136.